هـل أعود ؟!

للأستاذ مخلف القاضى

كنت والليل والقمر والفلك والنهر ...

وكنت والعشب فى الجنة ، بين الفاكهة والزهر ...

كنت والرفاق ، نبصر سهام النور تتلاقى لتفترق ، وتتعاشق لتبتعد ...

وكنت والصياد — فى منطقة الرهو — يخرج الشبكة ، باسما إذا أقبل الحظ ، عابساً إن جفاه السعد ...

كنت فى الكوخ ، أناجى نار المجوس ، تشعلها عاتكة . فى العراء ، وهى تخبو وتسطع ، والرياح تتناوح ...

وكنت مع الأضواء المنبعثة ، من الشاطئ البعيد ، فى المرقص الجديد ، أتابع ... خطاهم

كنت أردد الشدو ، مع الفتيان ، الذين عشقوا الرياضة ، فلاح شراعهم فى الليل ؛ وراء الجسر يجرى ، تحت همسات النجوم ...

وكنت مع صرعى « كيوبيد » الذين ضاقت بحبهم رحاب الأرض ، فطاروا بسعادتهم ، ليشهدوا عرائس البحر ...

كنت مع المترفين ، الذين فتنهم النيل ، فأخلدوا إليه ، واتخذوا داراتهم فوق أديمه ، ليسمعوا منه اللحن الأبدى المقدس ...

وكنت مع الخلد ، أسمع حديث الشجرات ، وأصغى إلى قصة الزارعين وجهد العاملين ، فى غبطة واهتمام ...

كنت مع الملاحين ، الذين اشتدت بهم الريح ، وانحرف عنهم التيار ،

أنتظر — مشفقا — ختام المعركة ، بين القوى الثلاث ...

وكنت مع البائسين ، الذين أضناهم المرض ، وغيرتهم الأسقام ، أصاحبهم فى غرفهم المنعزلة ، ودموعهم المنسكبة ...

كنت أرثى لأنينهم ، وأشفق على حنينهم ، فأبسط راحتى ، إلى السماء ، ألتمس العزاء ..

وكنت مع الحسان اللاتى وقفن حياتهن ، للبذل والحنان : للغريب والوحيد ، حتى أذواهن الدهر والانتظار ، فأغمضن جفونهن من التعب ، وهن حالمات بالنداء ...

كنت فى جزيرة (١) ، خلف سور ، هجرها النهر فى غيضه ، فاستنبتها ربها واستوطنها ، بعيداً عن صخب المدينة ، حيث لا يعرف عبد أو أمير ..

أى صديق ! .. الذى منحه « حابى » نعمة وبركة — لا تأسف إذا استرد النيل هبته ، أيام الفيض ، فانه سيهديها اليك بعد ، خصبة ، غنية بعناصر النماء ...

وأنت أيها المصيف ، الذى خلا من النافذة والباب ، وغنى بالخص ، عن ستائر الديباج ...

أيها المغنى الذى سليته الحياة قوة المناعة والدفاع ، فاستغنى بجماله ، عن الحصون والقلاع ...

أترانى أعود اليك ، فأستريح على ثراك الندى ، وأستروح نسيمك الشذى وأستمتع بالنظر الأنيق ، وأسعد بالمقام فيك ، فى ظلال السلام ، ونعيم الحرية والاستقلال ؟ ...

أم تطغى أمواج الحرب عليك ، فتطمس معالمك ، وتحيل مباهجك ، وتصبح ذكرى ؟ ! ... ويقول زوارك : لقد كان هنا مغنى ومصيف !

(١) جزيرة المنيل تحت القصر

بل تبقى أنت لتشهد وجوها جديدة ، وتسمع ألسنة غريبة ! ! وتذكر الرواد فلا مجيب ؛ وتتفقد السمار ، فلا سميع إلا رجع الصدى !!!

فهل أعود ؟ ! ...

أيها الأمين على سرى ، الحافظ لوعدى ! سلاماً ! .

أيها القمر المطل من سمائه مستحياً ! أماناً ! .

فلن أسمع فى لياليك صفيراً ، ولا فى سرارك أزيزاً ...

سأرتحل إلى الجنوب ، وحدى . . .
وأنعم بضوئك الفضى ، وحدى . . .
وأهنأ بالنوم تحت عينيك ، وحدى . .
وأشهد إذا ما غبت - بالليل - وحدى . . .
فهل أعود ؟ ...

لا تأس أيها القمر ، على لياليك ، التى ضيعتها نذر الحرب ، على عشاق الليالى . . . ! ! !

فلن تسمع منى — أيها الشريد الحبيب — مقالة العربى فيك :

« أضيع من القمر فى ليالى الشتاء » .

سأناجيك — سأناغيك ، وحدى . .
سأنتظر هلالك ، وأرتقب بدرك وحدى
سأساير موكبك ، حتى الأفول . . .
ولكن ، هل أقوى على وداعك ؛ وحدى

متى ياصحابى ... متى أعود ؟ . ؟

خلف الماضى